اثر المحسّنات المعنويّة في آيات الجنة والنار

الأستاذ المساعد الدكتور
جاسم عبد الواحد راهي

الباحث
باسم شعلان خضير

التمهيد :

الحمدُ لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد الأمين وعلى آلة الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين .

يرتكز الخطاب القرآني على الوان المحسنات المعنوية ، الموظفة توظيفاً استراتيجياً بشكل يمنح الخطاب فوق خصوصيته تميزاً مضاعفاً نتيجة لِما تضفيه تلك المحسنات المعنوية الجميلة من أثر في نفس المتلقي إذ تقرّب المعاني وتزيد في جمالية الصور مما يراها المتلقي ماثلة أمام عينيه وآيات الجنة والنار في القرآن الكريم غنية ومشحونة بهذه الأساليب البلاغية فنجد الحضور المكثف لتلك المحسنات مما تجعلها اكثر تقبلاً في النفس وتألفها سريعاً لتحقق الغاية في تثبيت الأثر في نفس المخاطب وتتجذر أركان الصور في المخيلة لتعمق أدراكه لها وانفعاله معها.

ومن هنا سنحاول تتبع أثر المحسنات المعنوية في آيات الجنة والنار عبر اقتفاء آثر تلك المحسنات ودراستها وتحليلها وبيان جماليتها وما أدته من وظائف فنية ، فكان قوام البحث على محاور عدّة نتناول فيها الوان المحسنات المعنوية منتهجين في ذلك المنهج الوصفي

التحليلي .

أولاً: الطباق:

الطباق لغةً:

قال الخليل:((طابقتُ بين الشيئين إذا جمعت بينهما على حذو واحد وألزقتهما))[١] ، و جاء في اللسان((تطابق الشيئان تساويا. والمطابقة: الموافقة. والتطابق: الاتفاق، وطابقت الشيئين: إذا جعلتهما على حذو واحد وألزقتهما))[٢].

الطباق اصطلاحًا:

((هو الجمع بين الضدين أو المعنيين المتقابلين في الجملة))[٣] ،وفي الإيضاح: ((هو الجمع بين المتضادين، أي معنيين متقابلين في الجملة))[٤].

ويقسم الطباق إلى نوعين :

أ – طباق الإيجاب: ويكون بالشيء وضده .

ب – طباق السلب : ويكون بالشيء ونفيه .

أ – طباق الإيجاب :

ومثاله قوله تعالى :﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (الحج : ٤) .

الطباق في(يضله ويهديه) طباق إيجاب.

والطباق يرخي على الآيات ميزاته على صعيد الإيقاع وعلى صعيد الدلالة في تعميق الدلالة وتوضيحها والسخرية من الكافرين ومن مآل هدايتهم .

ليس النص القرآني نصاً يعتمد على التلوين الموسيقي ، ولكنه قطعاً أيضاً غير خالٍ منه ، وهو في النص القرآني نغم يسري لاعباً دوراً قوياً وفاعلاً في التعبير عن المعنى وتوضيحه ، قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ) (البقرة ١٧٤ – ١٧٥) .

إن استخدام ((الطباق الإيجابي وهو تضاد كلمتين بلفظين مختلفين وليس بالنفي)) [٥] يقوي المعنى ، ويدعم نسق الكلام وانسيابيته وسهولته على المتلقي ، مما يجعله يركز لا شعورياً على الصورة هنا والمعنى .

وهذا ما نراه في موضع آخر من السورة أيضا في التضاد والطباق الإيجابي بين لفظتي النور والظلمات ، في قوله تعالى : (يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أولئك أَصْحَابُ النَّارِ) (البقرة ٢٥٧) .

وهذا التقابل بين الكلمتين يسهم في توضيح المعنى وتقويته وتجسيده بشكل أوضح .

ومن الطباق أيضا قوله تعالى : (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ) (الأعراف: ٥٠).

والطباق هنا بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وقد جاء الطباق هنا حاملا لتوضيح المعنى ، وإبراز الفرق بين الفئتين .

ومن الطباق أيضا :(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا

ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) (الحديد: ٢٠)

فالطباق موجود في التعبير القرآني بين العذاب الشديد ، والمغفرة والرضا من الله تعالى ، وهنا الطباق يحمل للمتلقي رسالة كبيرة للغاية ودقيقة أيضا تسهم في فهمه لطبيعة النص القرآني الناتح دوما للمدلولات السياقية النصية التي تأتي حصرا من سياقاته المتداخلة المتعددة في طرائق تعبيريها ، والمتداخلة علائقيا على مستوى تضافر جهود اللغة التعبيرية ، ونقصد بذلك أن المعنى هنا يكمن في تنافره بين العذاب والسخط بالتالي ، وبين المغفرة والرضا ، ولكن اللافت فعلا ليس فقط التنافر على مستوى الصورة في العقاب والشعور ، ولكن أيضا لننتبه جيدا إلى العذاب المقترن طبيعيا بالسخط وإن لم يكن مذكورا وبين الرضا الذي ذكر لكونه شيئا محبوبا ، فطبيعة النص القرآني جعلت المكروه غائبا عن الصورة مستدلا عليه من خلال السياق بينما أظهرت المحبوب من الرضا ، وهنا علامة دقيقة للغاية فالعذاب يقترن بالسخط ولكن السخط ليس دائما ، وهنا يجب أن ننتبه إلى دقة التعبير القرآني الكريم ، فالرضا في حال دخول الجنة دائم بطبيعة الكرم الإلهي ، ولكن السخط حتى مع دخول النار ليس دائما ، ولذلك فقد امتنع النص القرآني لكراهيته ولعدم ديمومته عن ذكره ، فمن المعروف أن هناك فئات تعذب في جهنم ، ولكنها تُدخل بعدها في الجنة ، وهناك فئة تسمى عتقاء الرحمان أيضا وهم فئة لم يفعلوا خيرا قط ، فحتى هؤلاء ينالهم من رضا الله تعالى وكرمهم ، ولذلك فمن طبيعة المن الإلهي أن جعل الرضا مقترنا بالمغفرة وتجاوز السيئة والمن بالتفضل ، ولكن العذاب ليس مقرونا بشكل دائم بالسخط هذا من جهة .

أمّا من جهة ثانية يجب أن نلاحظ المنّ الإلهي والدقة القرآنية في التعبير بين العذاب والمغفرة ، وهما ضدان هنا ، إذن من لا يعذب وضده ليس المنزه عن ارتكاب الإثم بل يكفي قبول التوبة ، وتحصيل مغفرة الله تعالى ، مما يجعل الضد هنا على مستوى العمل ، وعلى مستوى الموقف من الله تعالى ، وليست الصورة المتنافرة هنا بين شيئين متضادين في النوع ، بل بين شيئين متساوين في الواقع وهما نوعان من الناس المرتكبين للذنوب ، منهم لم يتب أو لم يحصل مغفرة الله تعالى وهؤلاء إلى العذاب ، ومنهم من تاب وحصل مغفرته تعالى فنال الرضا والغفران .

ونلاحظ هنا التكثيف القرآني الذي قابل بين شيئين ليسا على نفس المستوى فمقابلة العذاب يجب أن تكون بالهناءة ، ولكن الله تعالى هنا لم يوضح معنى الهناءة بل اكتفى بالتعبير بـ المغفرة والرضوان ، وهنا نتساءل لماذا ؟ .

الواقع أن الجواب أن اختفاء العذاب وحده هو كاف من جهة ، لأنه من عظيم ، ولأن المن الحقيقي ، والسعادة الحقيقية هي في

تحصيل المغفرة والرضا وبالتالي حب الله ، ولأن وصف النعيم ربنا لهو سرد كبير ، وربما أراد الله تعالى تشويق عقل المتلقي البشري إلى نوعية هذا العطاء فاكتفى بالإشارة إلى مسببه ، وربما أراد تعالى أن يوضح الهدف من الدنيا ، وربما كل ما سبق مجتمعا .

ومن الطباق أيضا قوله تعالى : (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) (آل عمران: ١٠٦).

ونرى هنا اقتران صفة السواد بالنار ، والبياض بالجنة ، وهنا الطباق عمق المعنى ، وأعطاه بعدا إضافيا ، حيث جاء الطباق هنا موضحا للمعنى ليس فقط من خلال اختيار الشيء وضده ،بل من خلال ربط كل من النار والجنة والرضا والسخط والخوف والذل بالألوان ، بل من خلال جعل كل واحدٍ منهما على أقصى طرفي النقيض ، فكما نعلم السواد والبياض أقصى نقيضين وأوضح نقيضين يمكن أن يظهرا بشكل واضح ، وقد استخدمهما التعبير القرآني لإيضاح الصورة والفرق بين الحالين من الوجهة النفسية ومن الوجهة المآلية ، بمعنى أن مآل وشعور ومصير كل من الفريقين مختلف اختلافا كبيرا كما هو الاختلاف بين السواد والبياض .

ثم إنّ التعبير هنا بالطباق لا يكمن في التنافر فقط ، بل بالاختيار أيضا ، إنّ اللون نفسه هنا يختزن كثيرا من المعاني التي يستمدها من ضده في السياق التعبيري ، فالبياض هنا مع ذكر السواد استدعى إلى ذهن المتلقي كثيرا من الدلالات الإيحائية والمناخات التعبيرية الخاصة بكل منهما والمرتبطة بالعلاقة بينهما المستدعية إلى الذهن بقوة وحضور الضد ، فاللون الأبيض يعاكس اللون الأسود في :

١ – الاختلاف الواضح الشديد .

٢ – طبيعة العطاء والإشعاع فاللون الأبيض عاكس مشع معطٍ بطبيعته ، واللون الأسود ممتص كامد عاتم بطبيعته .

٣ – اللون الأبيض دلالة السعادة والأمور الجيدة والاستبشار ، واللون الأسود دلالة الحزن في العرف البشري ودلالة على الألم والغم والنكد والذهول والمرض الشديد ، وهذه الدلالات كما نرى تتكامل في نفس المتلقي من خلال الطباق بين صورتي البياض والسواد فهناك كثير من المعاني والمدلولات المستمدة من الدوال السياقية ، والتي دون سياقها النصي الضدي هنا لم تكن لتوجد بهذه القوة ، وهنا يبرز مدى براعة و مناسبة استعمال هذا اللون البديعيّ تحديداً في هذا المقام، ومدى ملاءمته للسياق، وهذا التقسيم كما نلاحظ هو تقسيم موظّف، وهادف، و مناسب لغرض الآية الكريمة؛ وهو إيضاح الفروق بين السوادِ والبياض .

ثانيا: التورية:

التورية لغةً:

جاء في اللسان (ورى): ((وريتُ الشيء واريته: أخفيته. وتوارى: استتر. ووريت

الخبر: جعلته ورائي وسترته. ووريت الخبر أورّيه توريةً: إذا سترته وأظهرت غيره))[٦].

التورية اصطلاحًا:

« وهي أن يطلق لفظ له معنيان: قريب وبعيد، ويراد به البعيد منهما))[٧] ، وتسمى التوجيه والإيهام والتخييل والمغالطة[٨].

يقول تعالى : (وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ) (غافر:٦).

وفي الآية الكريمة السابقة نرى أن كلمة (كلمة) فالكلمة تحمل معنيين ، فالمعنى الأول المعروف هو معنى الحديث واللفظ الحامل للمعنى ، ولكن المعنى المورى به هنا هو معنى العقاب والوعد الرباني بالجزاء على الأعمال ، ويحمل هذا الأسلوب هنا متعة خفية بحيث يجبر العقل على البحث عن المعنى المقصود بالتورية هنا ، ويحصّل له لذة الاكتشاف ، والمعنى المخبوء كما نعلم أقوى وأكثر تأثيرا في المتلقي ، لأنه لا يتصف بالمباشرة ، كما أن النص القرآني هنا يحاول تبطن كل الأساليب المؤثرة في النفوس ، فما يكتشفه الإنسان بنفسه عادة يميل إليه ويعتنقه بقوة أكبر ، والنص القرآني يريد من المتلقين له أن يعتنقوه ، ويؤمنوا ، ولذلك تتنوع أساليب التأثير فيه .

التورية في (كلمة) وهي تحتمل معنيين الأول هو اللفظ كما ذكرنا ، وهو معنى غير مقصود. و المعنى الثاني الجزاء والعقاب والوعد الرباني وهو معنى بعيد، وهو المعنى المقصود. وهذه تورية مجردة؛ لم يذكر فيها شيء مما يلائم المورى به ولا المورى عنه، وإنّما يقود السياق ذهن القارئ إلى المعنى الثاني المقصود. ولايخفى ما للتورية من جانب فنيّ يكمن في متعة اكتشاف المعنى المخبوء وربط الدوال بدلالاتها.

(وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ)(الأعراف٥٠) .

ففي الواقع هنا أتت كلمة أصحاب من باب المشاكلة ، وفي الواقع ليس من في النار أصحاب لها ، وليس من في الجنة أصحاب لها ، ولكنها أتت من باب المشاكلة التي أِعرت المتلقي هنا أن الكافرين من كثرة لصوقهم في النار ، والعذاب ، والإحاطة بهم ، وتمسكها بهم لا أمل لهم بالهروب هي كالصاحب ، وكذلك الجنة لأهلها .

ثالثاً: المقابلة:

المقابلة لغةً:

هي إيراد الكلام ثمّ مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة[٩].

المقابلة اصطلاحًا:

جاء في الإيضاح المقابلة: ((هي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثمّ بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب))[١٠] .

مثال ذلك قوله تعالى: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ

وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (آل عمران١٠٦ – ١٠٧) .

المقابلة هنا جاءت بين معنيين (تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) و (فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

وللتقسيم الذي نشأ عن المقابلة كما نلاحظ رونقه البديع، فقد انقسم المعنى وتوزّع على طرفيّ نقيض وما استخدم اللون البديعيّ هذا عبثًا أو لغرض تزييني فنيّ فقط فلقد عوّدنا القرآن الكريم على اقتران الجمال بالفائدة، وكلّما لجأ الخطاب القرآنيّ إلى لون بديعيّ أو بيانيّ قرنه بغرض دينيّ محدّد، لايفوت المدقّق إدراك لمسة الوعظ ،والحثّ على التأمل والتفكّر. والمقابلة لها شبه إذاً مع الطباق في سوق الأضداد، وتفارقه في التعدد والترتيب. وللمقابلة أن يكثر أطرافها، وكلّما كثر عدد المقابلات كانت في نظر البلاغيّين أبلغ وأبدع. فقد « رأى علماء البديع أنّ أعلى رتب المقابلة وأبلغها ما كثر فيه عدد المقابلات لكن شريطة الابتعاد عن التكلّف والإسراف فيه، وقد اشترط السكاكي أن تقتصر المقابلة على الأضداد فحسب))[١١] .

وأيضا في قوله تعالى:(إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيْمٍ وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيْمٍ) ،(الانفطار:١٣-١٤).فنلحظ هذه المقابلة في الجملتين بين الكلمات ، في طباق محكم على صعيد الجملة ، وهو ما يخلق صورتين متضادتين كل منهما في مواجهة الأخرى ، تبرزها وتقويها ، وتضعها على عمق أكبر من الإشارة إلى الفرق بين الحالين ، وإلى نوع من التناسب أيضا ، فالمقابلة هنا أفضت إلى نوع من التناسب بين مآل الأبرار ، ومآل الفجار ، وتتماسك البنى التعبيرية مع بعضها حتى على الصعيد اللفظي ، فنرى هذا النوع من التطابق في الوزن ، وبالتالي الموسيقى الناتجة عن إيقاع الكلمات ، بين الأبرار – الفجار ، ونعيم – جحيم ، وهذا التوازن اللفظي يفضي إلى نوع من الشعور بأن الجملتين متشابهتان ، ولكن معرفة المعنى تناقض هذا الشعور الإيقاعي الناتج عن الكلمات ، ولكن هذه المناقضة تخدم معنى النص ، لتبين أن الموسيقى والإيقاع وإن كان واحدا إلا أنه يختلف كثيرا من ناحية تعبيره عن الفكرة ، فالإيقاع الممتع ينساب في الأذن موصلا الفكرة بشكل أعمق من ناحية ، وأسلس من ناحية أخرى ، وكأنه تعالى يقول لنا ، إن مآل الأبرار بشكل طبيعي وسلس الجنة والنعيم ، ومآل الفجار بشكل طبيعي أيضا ومنطقي إلى الجحيم .

رابعاً: المشاكلة:

المشاكلة لغةً:

الشكلُ بالفتح الشبه والمِثل والجمع أشكالٌ وشكول والمشاكلة الموافقة والتشاكل مثله والشاكلة الناحية والطريقة[١٢] .

المشاكلة اصطلاحًا:

وهي أن ((تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه

في صحبته))[١٣]. ويقوم هذا الأسلوب على فكرة المخادعة[١٤] ، لأنّ السامع أو المتلقي يتوهّم أنّ المعنى الثاني هو الأوّل، فإذا فكّر وتأمّل علم أنّه غيره[١٥].

ومثال المشاكلة قوله تعالى : (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) (الرحمن ٦٨) .

المشاكلة في قوله: (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ)؛ فالوصف هنا أمر تفصيليّ موضّح من الله تعالى بما أراد أن يكون عليه العبد ليرتقي إلى السعادة في الجنة ، وهذا يثير التأمّل والتفكير فيما نعّم به الله تعالى عبده، وتكمن مفاجأة المتلقي في أنّ هذا الأسلوب تكون حركة اللسان فيه أسرع من حركة الذهن على خلاف المألوف في إنتاج الكلام عمومًا، فالعدول هنا خروج على عدّة مستويات ينتهي إلى أن تأتي الدلالة من غير مصدرها اللغويّ من دون أن يكون في ذلك تفكيك للعلاقة بين الشكل والمضمون[١٦]

فالمعنى هنا ليس الطعام العادي الدنيوي الذي نعتقده ، وإنما هو وجه تقريبي لنقدر على تخيل الموجود في الجنة ، فهو بالتأكيد ليس كالرمان العادي في الأرض ، لأن الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ومن المشاكلة قوله تعالى :(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (التوبة٧٩).

فهنا استخدام لفظ السخرية لله إنما هو من قبيل المشاكلة لفعلهم ، وليس تعبيرا حقيقا، فكان ردا ملائما على سخريتهم ، وأفعالهم ، وقد جاء هذا التعبير لإشعار المتلقي أنهم سينالون من جنس أعمالهم .

خامسا: تأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح:

المدح لغةً:

المديح نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء. ويقال فلان يتمدّح إذا كان يقرّظ نفسه، ويثني عليها[١٧] .

تأكيد المدح بما يشبه الذم اصطلاحًا:

إنّ أول من فطن إلى هذا النوع من البديع المعنويّ هو عبد الله بن المعتز. وهو ضربان: أولهما: أن يستثنى من صفة ذمّ منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها في صفة الذم. وثانيهما: إثبات صفة مدح لشيء تعقبها أداة استثناء يكون المستثنى بها صفة مدح أخرى له. كقول الرسول (صلى الله عليه وآلة وسلم) :» أنا أفصح العرب بيدَ أنّي من قريش» حيث أنّ ذكر أداة الاستثناء يوهم إخراج شيء مما قبلها من حيث أن الأصل في مطلق الاستثناء هو الاتصال، فإذا ذكر بعد الأداة صفة مدح أخرى جاء التوكيد[١٨] ، وفي قول الرسول(صلى الله عليه وآلة وسلم) : أنا أفصح العرب ثم يلي العبارة باستثناء(بيد) إيهام بأنّ ما سيأتي هو ذم لبداهة أنه منقطع في الحكم عن ما قبل الاستثناء، وهنا تلاعب في سبك العبارة ، وتحوير لأسلوب الاستثناء جعل هزّ أفق التوقع عند القارئ مركز المتعة، واللعبة الجماليّة.

فبعد الاستثناء يتفاجأ المتلقي بأنّ الصفة التي تلت هي ليست عيباً البتة (أنّي من قريش). بل مدح يثني على المدح السابق ويعضده.

قال تعالى : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً) (مريم٦٢) ، وقوله تعالى : (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً وَكَأْساً دِهَاقاً لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَاباً) (النبأ ٣١ – ٣٦)

ولذلك تم باستثناء صفة ذم واقعة في النفي عن الشيء ، وهي صفة خاصة بالمدح ، بتقدير وجودها في سمة من سمات الذم . وفي هذا الأسلوب إمتاع للقارئ بمخالفة توقعاته ، والتعبير المختلف الجاذب للذهن ، وتوضيح الفكرة عن طريق النقيض .

تأكيد الذم بما يشبه المدح:

الذمّ لغةً:

الذمّ نقيض المدح. والعرب تقول ذمّ يذمّ ذمّاً وهو اللوم في الإساءة[١٩] .

تأكيد الذم بما يشبه المدح اصطلاحاً:

وتأكيد الذم بما يشبه المدح كعكسه السابق ضربان:

١-أن يستثنى من صفة مدح منفيّة عن الشيء صفة ذم، بتقدير دخولها في صفة المدح. كقولك(وفلان لاخير فيه إلّا أنه يسيء إلى من أحسن إليه).

٢- أن يثبت للشيء صفة ذم وتعقب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى له.(فلان فاسق إلّا أنّه جاهل). والضرب الأول يفيد التأكيد من وجهين والثاني من وجه واحد[٢٠] .

ولهذا الأسلوب؛ تأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح جماليّته التي يسدلها على الخطاب، فيتلاعب بالقارئ ،ويمتّعه بلعبة الإيهام حتى تتحقق غاية المتعة عند إدراك المعنى المراد بعد أن انزاحت الدلالات بفعل لعب الدوال.

ومثاله قوله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) (الحج : ٤) .

فنرى هنا التأكيد بتكرار المعنى بين كلمتي يضله ويهديه ، والهداية هي كما نعلم للأمر الجيد ، وتبدو كأنها مدح ، ولكنها في الواقع ذم وسخرية من هؤلاء الذين اتبعوا أنفسهم فكانت هدايتهم إلى النار التي تستعر باللهب .

وفي قوله :

(بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ)(البقرة ٨١).

وهنا نرى شيئا من الذم بما يشبه المدح ، وهو ما يوصل السخرية من هؤلاء ، وتبيان الفرق الكبير بين ما فعلوه والنتيجة المرادة ، فكان الكسب هنا للسيئة ونعلم أن الكسب يكون عادة بالخير ، لأن طبيعة لفظ الكسب هي لجلب منفعة وتحقيق شيء جيد لصاحبه ، ولكنه هنا تعبير عن السخرية من جهة ، وعن تأصل الفساد والكفر في نفس البعض حتى أصبح يعتبر السيئة كسبا ولا يدرك كينونتها من كفره حيث لا يؤمن بأنه سيعاقب عليها .

ويقول تعالى: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ

إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ) (القصص: ٤١)

فالإمام عادة تذكر للخير، وتبدو في البداية وكأن النص القرآني يتحدث عن محبوبين أو مؤمنين ويمدحهم، ولكن نفاجأ مع تقدم الآية أن الأئمة هنا يدعون إلى النار، وتلك هي المفارقة هنا، فهو ذم عن طريق شبهة المدح أو الذكر الحسن.

سادسا: الطي والنشر: أو اللف والنشر

الطي لغةً:

الطيّ نقيض النشر، وطوى البلاد طيًا: قطعها بلداً عن بلد. وطوى الله لنا البعد أي قربه. والنشر لغةً: ونشرت الأرض تنشر نُشُوراً أصابها الربيع فأنبتت. ونشر المتاع وغيره ينشر نشراً بسطه. والنشر خلاف الطي[٢١].

الطي والنشر اصطلاحًا:

« هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثمّ ذكر ما لكلّ واحد من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرده إليه))[٢٢].

ومما فيه طي ونشر في القرآن الكريم قوله تعالى : (وَالَّذِيْنَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمَقَامًا) (الفرقان:٦٥-٦٦) وذلك من باب تبيان محل ومعنى الغرام هنا، وهو اللصوق الشديد، ثم يأتي بيان وتفصيل هذا اللصوق بقوله هي مكان المستقر والإقامة لهؤلاء الكفار.

ومن باب النشر قوله تعالى : (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ)(النساء:١٢٤).

وللنشر والطي جماليته التي تكمن في إشراك المتلقي في إعادة تركيب المعنى وترتيب الدوال وربطها بمدلولاتها، وهنا جاء النشر على ترتيب الطي فنرى في الآية السابقة كيف شرح معنى - مَن - (ذكر أو أنثى)، ففصل بالمعنى بعد ذكره مجملا.

(يَومَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ)(هود ١٠٥ – ١٠٨) .

وهنا نلاحظ كيف تم تفسير الآية بعد الإيجاز من خلال حكم شقي وسعيد، ثم أتى التفصيل بالمعنى المقصود في الآيات اللاحقة، واختار التركيب على هذا النحو ثقة بمعرفة القارئ المعنى ووضوحه.

وقال تعالى : (وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة١١١) .

فهنا قد ذكر النص القرآني الفريقان أولا على الشكل المجمل لهما، والمعنى : على رأي اليهود لن يدخل الجنة سواهم ، وعلى رأي النصارى لن يدخل الجنة إلا النصارى، وهنا الكلام غير غامض بسبب تضاد وكراهية كل من الفئتين للأخرى وإنكارها الجنة عليها ،وبالتالي وضح

الكلام والقصد ، وهو من اللف والنشر .

خلاصة :

وعلى ضوء ما تقدم نجد أنّ لألوان المحسنات المعنوية جماليّاتها ووظائفها الفنيّة المتنوعة ، وتوضيحا له في آيات الجنة والنار وزيادة في أثره وبلاغته ، والمحسنات المعنوية أنى حضرت وشّت الكلام بأناقته ورونقه وسحره، وأضفت عليه من ألقه إن أحسن توظيفه واختيار المحسّنات الملائمة للمقام والحال. ومن هذه المحسنات ما يضفي جرسًا، وإيقاعًا ،وتنغيمًا، ومنها ما يتلاعب بالقارئ ، ويمتّعه بلعبة الإيهام حتى تتحقق غاية المتعة عند إدراك المعنى المراد بعد أن انزاحت الدلالات بفعل لعب الدوال. وليس الجمال وحده ما يحققه استعمال المحسنات في الخطاب القرآني بل يحقق إلى جانب المتعة وظائف على مستوى مخاطبة عقل القارئ، وعواطفه، بالإقناع ،والاستحواذ على الانتباه، وضمان التأثير.

الفهارس

(١)كتاب العين الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ٥/ ١٠٩.
(٢)معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب،وهبة-المهندس،ص ١٣٠.
(٣)الإيضاح في علوم البلاغة الخطيب القزويني،ص ٤٧٧.
(٤)اللغة العربية وأساليب بلاغتها في الشعر العربي المعاصر ،لؤي كرمان حليم ، ص ١٧٣ .
(٥) ينظر لسان العرب، ابن منظور، مادة ورى.
(٦) الإيضاح في علوم البلاغة ، جلال الدين أبو عبد الله محمد الخطيب القزويني، ص ٤٩٩.
(٧)ينظر البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ،٣/ ٤٤٥.
(٨)علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني) ، ص ٧٢.
(٩) ينظر : مختصر المعاني : ٢٦٧
(١٠) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ص٤٨٥.
(١١) علوم البلاغة(البديع والبيان والمعاني) ، ص ٧٤.
(١٢)ينظر لسان العرب، ابن منظور، جذر شكل
(١٣)مفتاح العلوم، أبو يعقوب بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي ،ص٤٢٤.

(١٤)ينظر البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، جميل عبد المجيد، ،ص١٠٦.
(١٥)ينظر البديع في ضوء أساليب القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تقديم وتحقيق حفني محمد شرف، ،ص٨١.
*ينظر البلاغة العربية قراءة أخرى ،محمد عبد المطلب،ص٣٧٦.
(١٦)ينظر لسان العرب، ابن منظور، مادة مدح.
(١٧)ينظر في البلاغة العربية علم البديع، ،ص١٦٤-١٦٦.
(١٨)ينظر لسان العرب، ابن منظور، مادة ذمم.
(١٩)ينظر في البلاغة العربية علم البديع ، ص ١٧٠.
(٢٠)ينظر لسان العرب، ابن منظور، مادة طوي ومادة نشر.
(٢١) مختصر المعاني : ٢٧٢
(٢٢)الإيضاح في علوم اللغة، القزويني، ص٥٠٣.

المصادر والمراجع :

١. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ١٩٩٣م، ط٣.
٢. البديع في ضوء أساليب القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تقديم وتحقيق حفني محمد شرف، مكتبة نهضة مصر بالفجالة،مصر،١٩٥٧م،ط١ .
٣. لسان العرب ، ابن منظور جمال الدين ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط١، ٢٠٠٠م
٤. في البلاغة العربية علم البديع، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت.
٥. مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني، نشر دار الفكر، قم، بيروت، ١٤١١ه، ط١ .
٦. البلاغة العربية قراءة أخرى،محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان ناشرون سلسلة أدبيات،بيروت،١٩٩٧م،
٧. البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، جميل عبد المجيد، سلسلة دراسات أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.
٨. مفتاح العلوم، يوسف بن محمد بن علي السكاكي ، ط١،تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٠م .
٩. علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني)، محمد أحمد قاسم،محيي الدين ديب، المؤسسة الحديثة لكتاب،طرابلس-لبنان،٢٠٠٣م،ط١.

١٠. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم،دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ١٩٥٧م،ط ١.
١١. اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز ، ترجمة:عباس صادق الوهاب، مراجعة:يوئيل عزيز،ط١،دار الشؤون الثقافية،بغداد،١٩٨٧م .
١٢. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، وهبة-المهندس، مكتبة لبنان، ١٩٧٩م.
١٣. كتاب العين الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الكتب العلمية، ط ١.

Summary:

In light of the foregoing, we find that the colors of the moral improvements are their aesthetics and their various artistic functions, and to clarify it in the verses of paradise and fire and increase in its impact and eloquence, and the moral improvements that I attended and distracted the speech with its elegance and elegance and charm, and added to it from the best if it employs and choose the enhancs Appropriate for the place and the situation. One of these improvements lends a bell, rhythm, and rhythm, and some of them manipulate the reader, and enjoy the game of illusion until the goal of pleasure is achieved when realizing the meaning intended after the semantics have been removed by playing functions. Beauty is not only achieved by the use of enhanced in Qur'aan discourse, but also achieves functions at the level of addressing the reader's mind, emotions, persuasion, attention acquisition, and ensuring impact..